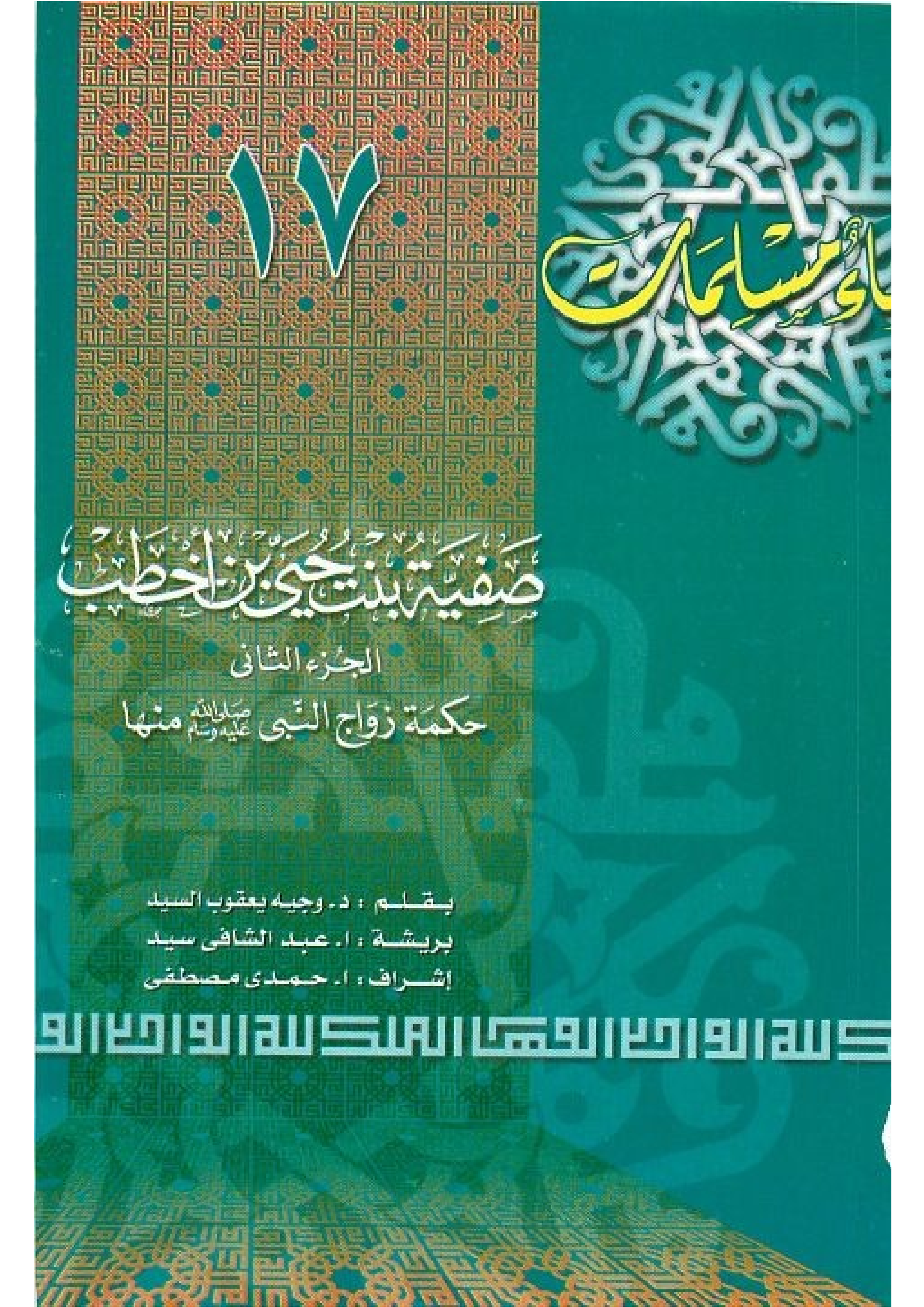


نساء مسلمات
١٧
صفية بنت حيي بن أخطب
الجزء الثانى
حكمة زواج النبى صلى الله عليه وسلم منها
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافى سيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

تزوجَ الرسولُ ﷺ من صفيّةَ بنتِ حُيَيٍّ بنِ أخْطب الْيهوديّةِ الأصْل ، بعْدَ أنْ أسْلمتْ وحسُن إسْلامُها ، وبرغْمِ سعادةِ الْمسلمينَ بهذا الزّواجِ الإنسانيّ ، فقدْ أبْدوْا خوْفَهم على رسولِ اللّه ﷺ منْها ، حيثُ خشُوا أنْ تُدبّرَ له حيلةً تتخلّصُ بها منه انْتقامًا لأهْلها وقوْمِها .

ففي تلكَ اللّيلةِ التى دخلَ فيها الرسولُ ﷺ بزوْجته صفيّةَ ، ظلَّ « أبو أيّوب الأنصاريُّ » بالْقُرب منْ منزل الرسولِ ﷺ وهو يحملُ سيْفه ، فلما أصْبحَ الرسولُ ﷺ سألهُ في دهْشةٍ :

مالكَ يا أبا أيّوب ؟

فأجابَ :

ـ يا رسولَ اللّهَ ، خفْتُ عليْكَ من هذه الْمرأة ، قدْ قتلْت أباها وزوْجها وقوْمها ، وكانتْ حديثةَ عهدٍ بكُفْرٍ فخفْتها عليك .

فدعَا الرسولُ ﷺ لأبى أيّوبٍ وقالَ :

ـ اللّهم احفَظْ أبا أيّوبٍ كما باتَ يحفظُنى !

ثم أمرهُ بالانصراف بعد أنْ أشاد بصدقِ صفيَّة وحسنِ إسلامِها .

وقدْ تأكَّدَ الرسولُ ﷺ بنفسه من حبِّ صفيَّة بنت حُيَيّ لهُ وخوْفها عليه من الْيهود في تلك اللَّيْلَة التي تزوَّجها فيها .

ففي أثناءِ عوْدتها مع الرسول ﷺ أراد أنْ يُقيم ليْلةَ الْعُرسِ في مكانٍ قريبٍ من ديارها فأبَتْ صفيَّةُ ذلك ،



حتى إنَّ الرسولَ ﷺ أغْضَبَهُ ذلكَ ، فلما اقْتَرَبا من الْمدينةِ ووصلَ النبيُّ ﷺ إلى دارِه ، تزيَّنَتْ صفيةُ على أَحْسنِ ما يكونُ ، وأقامَ لها الرسولُ ﷺ ليلةَ عُرْسٍ تليقُ بها .

وخطرَ للرسولِ ﷺ أنْ يسْألها عن سببِ رفْضِها النُّزولَ في الدارِ التي أعدَّها أولاً فقالَ لها :

ـ ما حَمَلَكِ على الامْتناعِ من النُّزولِ أولاً ؟

فقالتْ صفيةُ :

ـ خشيتُ عليْكَ منْ قُرْبِ الْيهودِ .

فزادَ ذلكَ منْ حُبِّها في قلْبِ النبيِّ ﷺ وتأكَّدَ منْ حُسْنِ إسْلامِها واتِّباعِها له .

ولما سألَ النبيُّ ﷺ زوجتَهُ عائشةَ عنْ رأْيِها في صفيَّةَ وقالَ لها :

ـ كيْفَ رأيتِ يا عائشةَ ؟

فقالتْ عائشةُ :

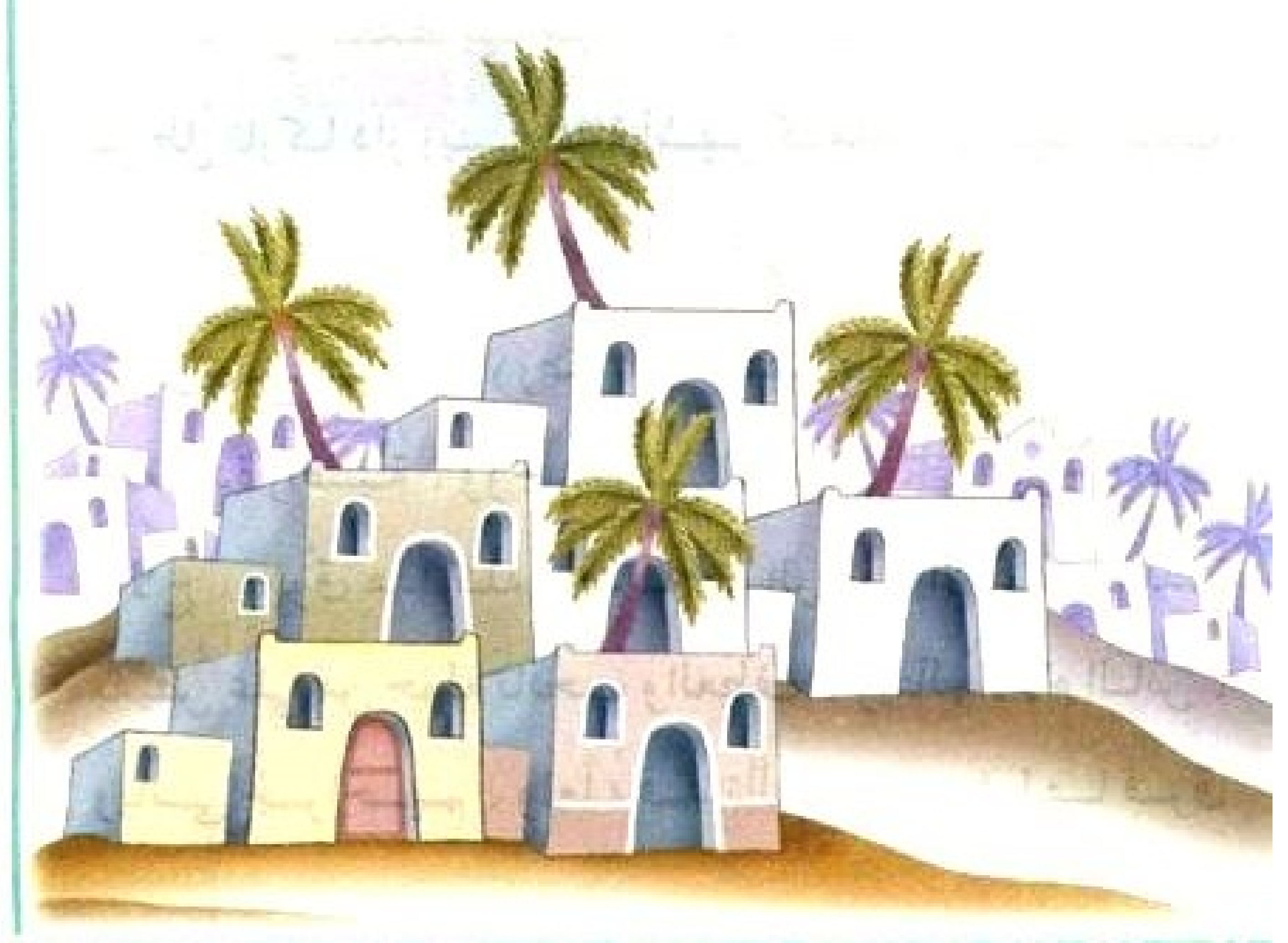
ـ رأيْتُ يهوديَّةً !

فقالَ لها رسول الله ﷺ :

ـ لا تقُولي ذلك ، فإنها أَسْلَمَتْ وحسُنَ إسلامُها .

وليسَ بعدَ شهادةِ رسولِ الله ﷺ شهادةٌ ، فهو لا ينْطقُ عنِ الْهوى ، إنْ هو إلاَّ وحيٌ يوحَى .

ولِذلكَ فقدْ كانَ الرسول ﷺ يتألَّمُ كثيرًا إذا أَغْضبَتْ إحدَى نسائِه صفِيَّةَ بنْتَ حُيَيٍّ وذكرتْها بأصْلها الْيهودِيِّ .



ففى إحدى الْغزوات ، اصْطحب الرسولُ ﷺ صفيّةَ بنت حُيَى وزيْنبَ بنت جحْشٍ ، وفى الطريقِ اعْتلَ بعيرُ صفيّةَ ، وكانَ مع زينبَ بنت جحشٍ بعيران ، فقالَ لها النبىُّ ﷺ :

ـ إنَّ بعيراً لصفيّةَ اعتلَّ ، فلو أَعْطيْتِها بعيراً ؟!

فقالتْ زينبُ :

ـ أنا أُعطى تلك اليهوديَّةَ !

وغضبَ الرسولُ ﷺ حينَ سمعَ هذه الْكلمةَ من زيْنبَ ، ونهاها عنِ التَّلفُّظ بها مرةً أُخرى ، ولمْ يكتف ﷺ بذلك بلْ ظلَّ تاركًا دار زيْنبَ ثلاثةَ أشْهرٍ كاملةً لا يأْتيها بسبب ما قالَتْهُ فى حقِّ صفيةَ (رضى اللّهُ عنها) .

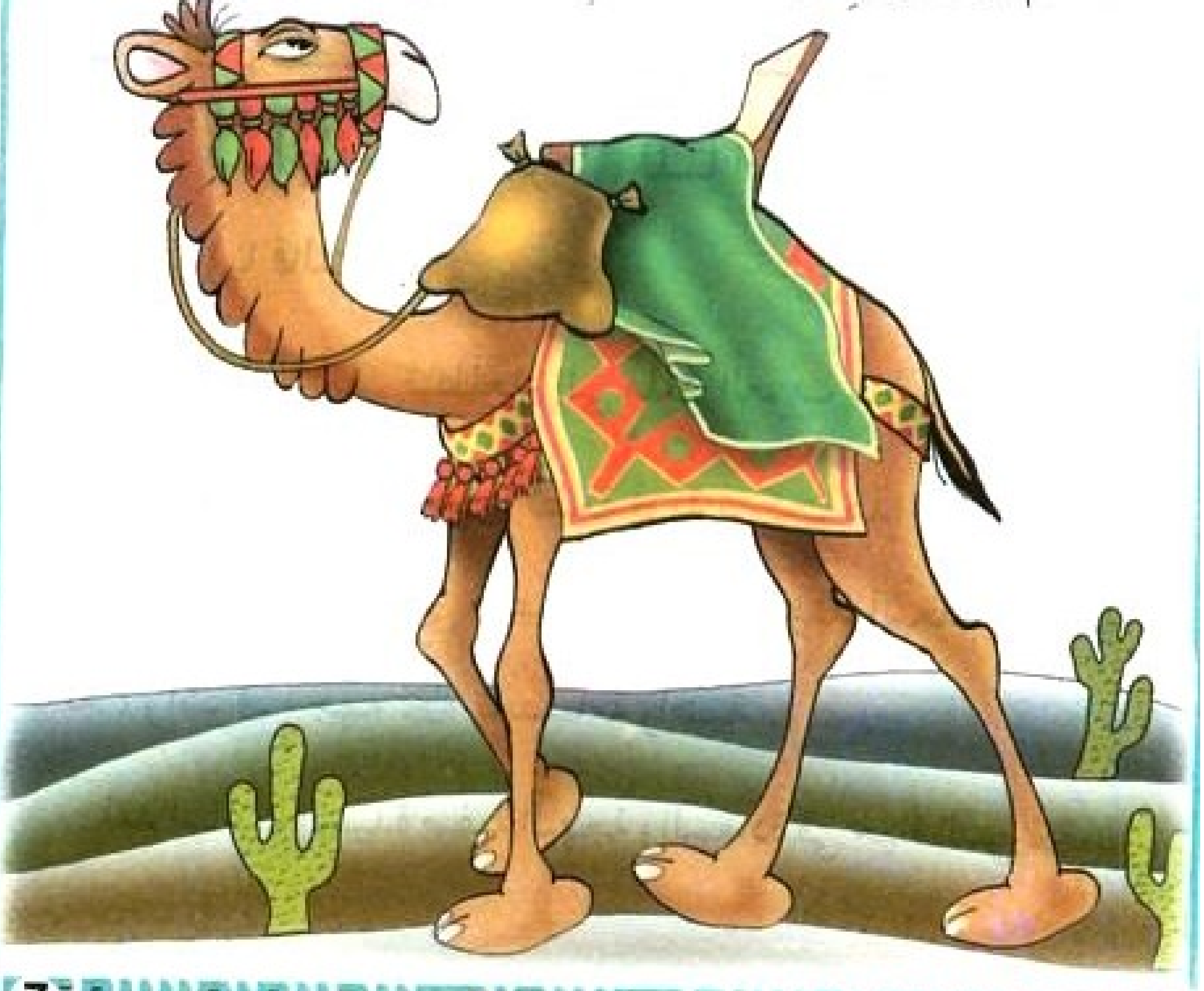
وعاشَتْ صفيةُ (رضى اللّهُ عنها) فى بيْتِ النبى ﷺ سعيدةً راضيةً ، ووجدتْ فى الرسولِ ﷺ الزوْج والأب والأخ ، وفوْق هذا كلِّه وجدتْ فيه الرسولَ الإنْسانَ ، الذى يفيضُ على منْ حوْلَهُ بالْحُبِّ والْعطف ، ويتألَّمُ لآلامِ النَّاسِ ، ويأسَى لجراحِهمْ ، ولعلَّهُ قدْ تألَّم لما حدثَ لها فرقَ

لها قلبُهُ الْكبيرُ وأغْدقَ عليها من حُبه وعطفه .

وسعدَ الرسولُ ﷺ بصفيَّة ، فقدْ كانت امرأةً صالحةً شديدةَ الذكاء والْفطْنة ، يدلُّ كلامُها على براعتها وذكائها الشديد .

ففي أوَّل يومٍ رآها فيه الرسول ﷺ قالَ لها :

ـ لَمْ يزلْ أبوك من أشدِّ الناس عداوةً لي حتى قتلْتُه .



فقالتْ :

ـ يا رسول اللَّه ، إنَّ اللَّهَ يقولُ فى كتابِه الْعزيزِ :

﴿ ولاَ تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [سورة الإسراء : ١٥]

فلمَّا خيَّرها الرسولُ ﷺ بينَ الْعتقِ أو الْبقاء معه قالتْ :

ـ بلْ أَختارُ اللَّهَ ورسولَهُ .

ولاحظَ الرسولُ ﷺ أَثَرَ لطْمَةٍ قديمةٍ على وجْهِها فسألها عنْ ذلكَ ، فقصَّتْ عليه صفيةُ الرؤْيا التى رأَتْها منْذُ أعوامٍ ، إذْ رأَتْ قمراً وقعَ فى حِجْرِها ، فلما أصْبحتْ وقصَّتْ على أُمِّها الرؤْيا قالتْ لها :

ـ ما هذا إلا أنكِ تتطلَّعينَ إلى ملكِ الْعربِ مُحمد .

ثم لطَمتْها على وجْهِها لطمةً قويةً تركتْ هذا الأَثرَ عليه ، ونظرَ الرسولُ ﷺ إلى صفيَّةَ فى شفقةٍ ، وقدْ أسْعَدهُ ما قالَتْهُ له ، وأَشْرقَ وجهُهُ ﷺ بابْتسامةٍ راضيةٍ .

لقدْ أشاعَتِ السيدةُ صفيةُ الْبهْجَةَ والسَّعادةَ فى حياةِ النبىِّ ﷺ ،

فقدْ كانتْ بارعةً في الْحديثِ ، شديدةَ الذَّكاءِ والفطْنةِ ،
كما كانتْ جميلةَ الخَلْقِ والخُلُقِ .

قالت عَنها ماشطَتُها :

ـ ما رأَيْتُ بينَ النَّساءِ أَجْملَ منها .

وحاولتْ صفيةُ أنْ تكفّرَ عنْ ذنوبِها السابقَةِ ، فراحتْ تتقرَّبُ إلى اللهِ بالطَّاعاتِ والأعمالِ الصَّالحةِ ،



وكانَ ماضيها وماضِي أُسْرتِها وأهْلِها في مُحاربةِ الإسلامِ أمْرًا يُقلقُها للغايةِ ، وكمْ تمنّتْ أنْ يمحَى عنها هذا التاريخَ وهذا النَّسبُ الذى لا يُشرِّفُها ، حتى لا يجدَ أحدٌ في ذلك فُرْصةً للطَّعْنِ في دينِها وإسْلامِها .

لكنَّ الرسولَ ﷺ ، كانَ يخفِّفُ عنْها هذا الشُّعورَ ، فهي وإنْ كانتْ تنْتمي إلى الْيهودِ ، فقدْ كانَ جدُّها هارونُ عليه السلام يهوديًّا ، كما كانَ عمُّها موسَى عليه السلام نبيًّا عظيمًا ، فلماذا لا تنْتسبُ إلى هؤُلاءِ الأنبياءِ الْعظماءِ بدلاً منْ حفْنةٍ من الأشْرارِ ؟

جلستْ صفيةُ مع عائشةَ وحفصةَ ذاتَ يوْمٍ ، فقالا لها كلامًا أغْضبها ، حيثُ ذكرا لها أصْلَها اليهودىَّ ، ولما دخل عليها الرسولُ ﷺ رآها تبكي فسألها عنْ سببِ بُكائِها فقالتْ :

ـ ذكرتْ عائشةُ وحفصةُ أنهما خيرٌ منِّي لأنِّي كنتُ امرْأةً يهوديَّةً !



وأضافتْ صفيةُ قائلةً وهى تمسحُ دمُوعَها :

ـ لقدْ قالتا لى : نحنُ أكرمُ علَى رسولِ اللهِ ﷺ منْكِ ، فنحنُ أزْواجه وبناتُ عمِّه .

فمسحَ الرسولُ ﷺ دمُوعَها بردائِه وقالَ لها :

ـ ألا قلتِ لهما : وكيْفَ تكونانِ خيْراً منىَ ؟ وزوْجى محمدٌ ، وأبى هارُونُ ، وعمِّى موسَى .



وأرضى هذا الكلامُ صفيةَ (رضى الله عنها) ، ونزل على قلبها بردًا وسلاما ، فحمدت ربها على ذلك ، وظلَّ لسانُها يرددُ كلَّ حين في افتخار :

-زوجي محمدٌ ، وأبي هارونُ ، وعمِّي موسى !

ومنذُ أن عرفت صفيةُ الإسلامَ وذاق قلبُها حلاوةَ الإيمان ، وهي تُخلِصُ للرسول ﷺ وتحبُّه حبًا شديدًا ، فقد كان ﷺ بأخلاقه الرائعة سببًا في إسلامِها .

وفي مرضِ الرسول ﷺ الأخيرِ الذي مات فيه ، عبَّرت صفيةُ عن شعورِها الصادق تجاه زوجها ورسولها ﷺ ، فقد دخلت على الرسول ﷺ وهو جالسٌ بين بعضِ نسائه ، فرأت الألمَ يشتدُّ عليه ، فبكت بكاءً حارًا ، وقالت :

-إني والله يا نبيَّ الله ، لوددتُ أنَّ الذي بك كان بي .

فنظرت نساءُ النبيِّ ﷺ إلى بعضهنَّ ، كأنهنَّ غير مصدِّقاتٍ ما تقولُه صفيةُ ، فغضبَ الرسول ﷺ من تغامزِهنَّ بها وقال لهنَّ :

ـ واللَّهِ ، إنها لصادقةٌ .

وبعْدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ ، وفى خلافةِ عُمَرَ بنِ الخطابِ ، أَرادتْ جاريةٌ لصفيَّةَ (رضى اللَّه عنها) أَنْ توقِعَ بيْنَها وبينَ أَميرِ الْمؤْمنين فذهبتْ إليه وقالتْ له :

ـ إن صفيَّةَ تحبُّ السَّبْتَ ، وهو يومُ احْتفالِ الْيهودِ ، وتتصدَّقُ على الْيهودِ وتصلُهمْ بأَمْوالِها .



وبعثَ عـمرُ بنُ الْخطـابِ إلى صـفـيـة (رضى اللّهُ عنـهـا)

وسألها عنْ ذلكَ فقالتْ :

ـ أمَّا السبْتُ ، فإنى لم أحبّهُ منذُ أبْدلنى اللّهُ به الْجُمعةَ ،

أما الْيهودُ فإنَّ لى فيهم رحِمًا ، فأنا أصِلُها .

وسألتْ صفـيـةُ (رضى اللّهُ عنها) جاريَتَهـا التى كـانتْ

تُحسنُ إليها :

ـ ما حَملكِ على هذا ؟

فقالتِ الْجاريةُ وهى تُظْهِرُ ندَمَها :

ـ الشيْطانُ .

فقالتْ لها صفيةُ :

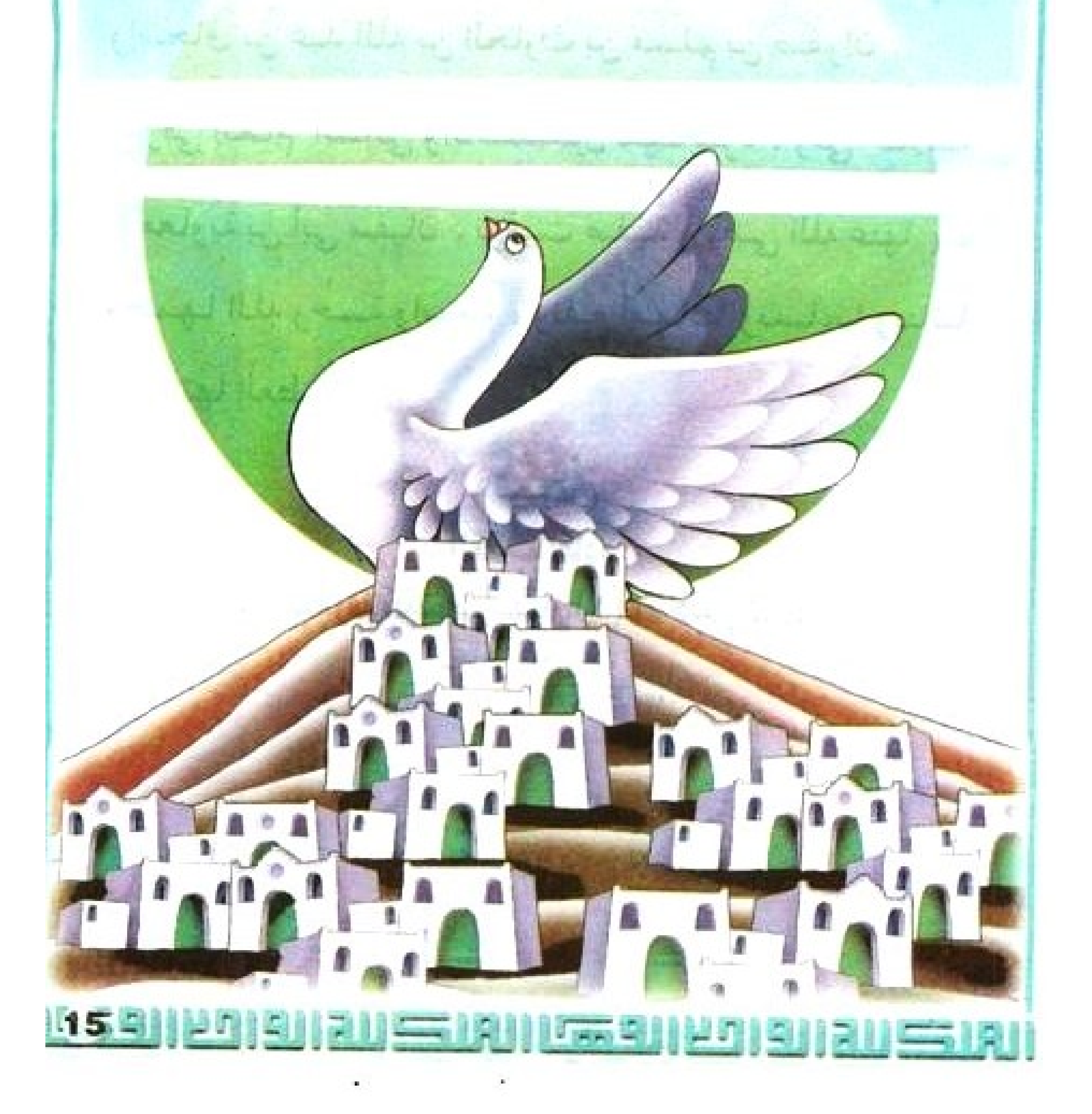
ـ اذْهبى ، فأنْتِ حُرَّةٌ .

ـ لقدْ كانتِ السيدةُ صفيةُ بنتُ حُيىٍّ بنِ أخطبَ يهوديَّةً

ذاتَ يومٍ ، وكـانَ أهْلُها جميعًا يُضْمرونَ الْعداءَ والْكراهيـةَ

للرسـولِ ﷺ ، لكنَّ اللّهَ (تعـالى) شـاءَ لهـا الْهِـدايةَ ،

وأنعمَ عليها بأنْ صارتْ زوجةً للرسولِ ﷺ ، وكانَ هذا الزَّواجُ نبيلاً بمعنى الْكلمةِ ، وكانَ توْقيتُهُ مُوَفَّقًا للْغايةِ ، حيثُ أخرجَ صفيةَ (رضى اللَّه عنها) من الظلُماتِ والْيأْسِ والْكُفرِ إلى رحابةِ الإيمانِ وسُمُوِّ تعاليمهِ .



وَنالَتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) رِضَا الرسولِ ﷺ ، فشهِدَ لها بحُسْنِ الإسلامِ والصِّدْقِ ، ولذلك فقدْ روَى عنها كثيرٌ مِنَ الْعُلماءِ ، حيثُ روَى عنْها ابنُ أخيها كنانَةُ ، ومَوْلاهَا يزيدُ بنُ معتبٍ ، وزينُ الْعابدين عليُّ بنُ الْحسينِ ، وإسحاقُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الْحارِثِ بنِ مُسْلمِ بنِ صفْوانَ .

وفى العامِ الثانى والْخمسينَ للْهجْرةِ ، وفى خلافَةِ معاويَةَ بنِ أبى سُفْيانَ ، توُفِّيتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) ، رحِمها اللَّهُ رحْمةً واسعَةً ، ونفعَ أُمَّهاتِنا ونسَاءَنا وبناتِنا بسيرتِها الْعطِرَةِ .

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان (١) الاختيار الصعب

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٧٣٢٤
الترقيم الدولى : ٩٧٧ ـ ٢٦٦ ـ ٧٥٩ ـ ٢